

مقدمة كتاب (أبو حامد الغزالي والتصوف)

للشيخ عبد الرحمن دمشقية

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الثانية

١٤٠٩ هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي أنار الحق وأدالته، وأبَارَ الباطل وأزاله، والصلاة والسلام على رسوله محمد خير عابدٍ وسالك، القائل (قد تركتكم على البيضاء ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك)^(١).

أما بعد: فإن في هذا البحث الذي قيَّده أخي في الله/عبد الرحمن دمشقية «حفظه الله» دراسة نقدية للفكر الصوفي من خلال مرجع يُعدُّ «دستور التصوف» الذي يعتمد عليه الصوفية حتى يومنا هذا، وفي شخص إمام من أئمتها، وعَلَم من أعلامه.

لكن هناك قاعدة يجب أن تكون محل اتفاق قبل الشروع في مدارسته، وهي أن تخطئة غير المعصوم أهون من نسبة الباطل إلى المعصوم.

فالمعصوم هو كتاب الله، وسنة رسول الله ﷺ، اللذان هما بحق «حجة الإسلام» على كل أحد، وهما بحق «المنقذ من الضلال»، و«القسطاس المستقيم»، و«ميزان العدل»، و«ومنهاج العابدين والعارفين».

إن التساهل في هذه القاعدة يعني فتح باب التحريف والتبديل في دين الله على مصراعيه، والتحريف والتبديل أخطر على الإسلام من وصف كبار الشخصيات بالخطأ.

إن الإسلام لا يعطي العصمة لأحد بعد رسول الله، ولكننا معشر المسلمين - في الواقع - نعطي هذه العصمة للرجال، ويُعزُّ علينا أن نرى الشخصية الكبيرة التي نحبا ونُجلُّها تخطيء، كما أننا عملياً لا نتعامل مع هذه الشخصيات الكبيرة إلا على أساس التسليم لهم بكل شيء، أو رفض كل شيء.

لقد تحول هذا الأسلوب إلى منهج مقرر يتحدى القواعد الإسلامية الراسخة التي يحفظها كل الناس مثل قول ابن عباس رضي الله عنهما: (ليس أحدٌ بعد النبي ﷺ

(١) صدر حديث أخرجه الإمام أحمد (١٢٦/٤)، وابن ماجه (٤٣)، والحاكم (٩٦/١) عن العرياض بن سارية رضي الله عنه .

إلا ويُؤخذ من قوله ويترك، إلا النبي ﷺ^(٢)، ومثل قول الإمام أبي حنيفة رحمه الله: (إذا قلت قولاً يخالف كتاب الله، وخبر الرسول ﷺ، فاتركوا قولي)^(٣)، وقول الإمام مالك رحمه الله تعالى: (إنما أنا بشر أخطيء وأصيب، فانظروا في رأيي فكل ما وافق الكتاب والسنة فخذوه، وكل ما لم يوافق الكتاب والسنة فاتركوه)^(٤)، وقول الإمام الشافعي رحمه الله: (ما من أحد إلا وتذهب عليه سنة لرسول الله ﷺ وتعزب عنه، فمهما قلت من قول، أو أصليت من أصل فيه عن رسول الله ﷺ خلافاً ما قلت، فالقول ما قال رسول الله ﷺ، وهو قولي)^(٥)، وقوله رحمه الله: (كل مسألة صح فيها الخبر عن رسول الله ﷺ عند أهل النقل بخلاف ما قلت، فأنا راجع عنها في حياتي وبعد موتي)^(٦)، وقول الإمام أحمد رحمه الله: (لا تقلدني، ولا تقلد مالكا، ولا الشافعي، ولا الأوزاعي، ولا الثوري، وخذ من حيث أخذوا)^(٧). إن تذوق العلم وحده هو الذي يستطيع أن يعودنا الاحترام الواجب لأهل العلم، بحيث نصل معه إلى درجة نقدر فيها العلم الذي عندهم، ونغفر لهم الخطأ الذي وقعوا فيه، دون أن يصير خطأهم غلاً في أعناقنا، نأخذ ما أصابوا فيه، ونتجنب ما أخطأوا فيه، دون أن نجعل خطأهم انتقاصاً لهم، ودون أن نجعل صوابهم عصمة لهم، فهذا الموقف هو الذي ينزه الاحترام الواجب للعلماء عن أن يتحول إلى نوع من التقديس والغلو والتعصب. ليس الهدف إذن تجريح شخصيات أو تقديسها، وإنما الهدف اكتساب موقف سديد بين «الحق» وبين «الرجل»، وأن يبقى الحق حقاً، والرجل رجلاً، لأن الحق حق فقط، ولكن الرجل غير المعصوم يمكن أن يكون محققاً، ويمكن أن يكون مبطلاً، وبينهما درجات كثيرة، ولهذا يقال:

«لا تعرف الحق بالرجال، ولكن اعرف الحق تعرف أهله».

موضوع الكتاب الذي هو بين يدينا «أبو حامد الغزالي» وكتبه خاصة «الإحياء»، كلاهما ملاً مسامع الدنيا، وشغل الناس كثيراً.

(٢) انظر: «جامع بيان العلم وفضله» (٩١/٢)، «الإحكام» لابن حزم (١٤٥/٦، ١٧٩) وقد أخذها عن ابن عباس مجاهد والحكم بن عتيبة، وعنها أخذها مالك رحمه الله عنه، ثم اشتهرت عنه، وكذا أخذها عنه الإمام أحمد رحمه الله.

(٣) «إيقاظ همم أولى الأبصار» للفلاحي ص (٥٠).

(٤) «جامع بيان العلم» (٣٢/٢)، «الإحكام» لابن حزم (١٤٩/٦).

(٥) «إعلام الموقعين» (٣٦٣/٢-٣٦٤).

(٦) السابق (٣٦٣/٢).

(٧) «إيقاظ همم أولى الأبصار» ص (١١٣).

فأبو حامد الغزالي إمام بحر، وعالم له مكانته، يُعدُّ من أنبياء العالم، وأعاجيب الزمان، نال شهرة عظيمة حتى لقب بحجة الإسلام، هذه المكانة الرفيعة إلى جانب نبوغه وعبقريته، وعلو همته ليست محل منازعة بين الموافقين والمخالفين له على السواء.

ولقد اجتمع في أبي حامد رحمه الله تعالى الذكاء الخارق، والعاطفة الجياشة، حتى كأنك إذ تطالع كتاباته تتعامل مع كائن حي تحس فيه الحرارة المتقدة، والوجدان الصادق، وتتسم من خلال السطور عبير الإخلاص الذي كان همه حتى قال فيه الحافظ شمس الدين الذهبي رحمه الله: (لولا أن أبا حامد من الأنبياء وخيار المخلصين لتلف)^(٨)، وحتى إن رجلاً يقول له وهو في سياق الموت: «أوصني»، فيقول له: «عليك بالإخلاص»، ولم يزل يكررها حتى فارق الحياة رحمه الله تعالى^(٩). ومع ذلك فإن أبا حامد كان بشراً من البشر، وواحداً من ولد آدم الذين قال فيهم رسول الله ﷺ: (كل بني آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون)^(١٠).

يقول تلميذه القاضي أبو بكر بن العربي رحمه الله: (كان أبو حامد تاجاً في همة الليالي، وعقداً في لبة المعاني، حتى أوغل في التصوف، وأكثر معهم التصرف، فخرج على الحقيقة، وخرج في أكثر أحواله عن الطريقة، وجاء بألفاظ لا تطاق، ومعانٍ ليس لها مع الشريعة انتظام ولا انساق، فكان علماء بغداد يقولون: «لقد أصابت الإسلام فيه عين»)^(١١).

لقد كان المأخذ الأول على أبي حامد قلة علمه بالحديث، حتى إنه ليقول عن نفسه: «بضاعتي في علم الحديث مزجاة»^(١٢) يعني قليلة، وقال الحافظ الذهبي رحمه الله: (ولم يكن له علم بالآثار، ولا خبرة بالسنن النبوية القاضية على العقل)^(١٣)، ومن ثم قال الإمام أبو بكر الطرطوشي: (شحن أبو حامد «الإحياء» بالكذب على رسول الله ﷺ، فلا أعلم كتاباً على بساط الأرض أكثر كذباً منه)^(١٤).

أما المأخذ الثاني فكان شكه وحيرته واضطرابه بين مذاهب الفلاسفة والصوفية،

(٨) «سير أعلام النبلاء» (٣٢٨/١٩).

(٩) «البداية والنهاية» (١٧٤/١٢).

(١٠) أخرجه من حديث أنس رضي الله عنه الترمذي رقم (٢٥٠١)، وابن ماجه رقم (٤٢٥١)، الدارمي

(٣٠٣/٢)، أحمد (٣١٨/٣).

(١١) «ابن تيمية والتصوف» د. مصطفى حلمي ص (٢٨١).

(١٢) «رسالة قانون التأويل» ص (١٦).

(١٣) «سير أعلام النبلاء» (٣٢٨/١٩).

وكان أبو حامد يعظم المنطق - رغم بعض النقد الذي وجهه إليه - واستطاع أن يدخله في علوم الإسلام، بل جل تعلمه فرض كفاية على المسلمين، وفي النبوة اقتفى الغزالي آثار الفلاسفة بعامة، وابن سينا بخاصة^(١٤)، وتلمح في أبي حامد شخصية فيها ذكاء ونبوغ لا ريب فيهما، وفيها رغبة في معارضة الغزو الثقافي الدخيل على المسلمين كما ظهر ذلك في كتابيه العظيمين «تهافت الفلاسفة»، و «فضائح الباطنية»، وتراه - مع ذلك - في أكثر كتبه تابعاً للفلسفة اليونانية الهلينية، والتصوف الهندي الشرقي، حتى قال فيه تلميذه القاضي أبو بكر بن العربي رحمه الله: (شيخنا أبو حامد بلغ الفلاسفة، وأراد أن يتقيأهم فما استطاع)^(١٥)، وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: (ولما وقع في «المضنون به غلى غير أهله» وغيره من كتبه ما هو من جنس كلام الفلاسفة في الشفاعة وفي النبوة وغير ذلك.. اشتد نكير علماء الإسلام على أبي حامد لهذا الكلام، وتكلموا في أبي حامد وأمثاله بكلام معروف)^(١٦).

وممن انتقده وتكلم فيه: أصحاب أبي المعالي كأبي الحسن المرغيناني وغيره، وأهل بيت القشيري وأتباعه، والشيخ أبو البيان، وأبو الحسن بن سكر، وأبو عمرو بن الصلاح، وأبو زكريا، وأبو بكر الطرطوشي، وأبو عبدالله المازري، وابن حمدين القرطبي، وأبو بكر بن العربي تلميذه، وأبو الوفاء بن عقيل، وأبو الفرج بن الجوزي، وأبو محمد المقدسي، والكردي وغيره من أصحاب أبي حنيفة^(١٦).

وبهذا يتضح أن المؤلف ليس أول من قرع هذا الباب من أولي الأبواب، فكم وكم له من سلف كما ترى، قاموا على ساق المناضلة والذب عن الشريعة الغراء مع احترامهم للإمام الغزالي، وحسن ظنهم به رحمه الله تعالى.

لقد حصر أبو حامد احتمالات وجود طريق النجاة في دوائر الفلاسفة والمتكلمين والباطنية والصوفية، وخلص بعد دراسة هذه الاتجاهات إلى أن المنفذ من الضلال هو التصوف، وأخطأ خطأ فادحاً حين أغفل منهج أهل السنة والجماعة، أصحاب الحديث والفقه والأثر، الذين هم بحق الفرقة الناجية، والطائفة المنصورة إلى قيام الساعة.

(١٤) ولهذا قيل: «أبو حامد أمرضه الشفاء» وهو كتاب لابن سينا.

(١٥) السابق (٣٢٧/١٩).

(١٦)، (١٧) «الصفحة» ص (٢١١-٢١٢) تحقيق د. محمد رشاد سالم رحمه الله.

وإذا كنا نوافق الغزالي فيما أخذه على الباطنية والفلاسفة والمتكلمين فلا يلزم من هذا أن يكون مصيباً في اعتباره التصوف طريق النجاة، بل التصوف ذاته في حاجة إلى من يحاكمه، ويوزنه بميزان الكتاب والسنة اللذين هما بحق حجة الإسلام، ليكشف مظاهر مخالفته لدين الله سواء في مصادر التلقي، وتقسيم الدين إلى حقيقة وشريعة، وتبني بعض المفاهيم الكنسية الرهبانية، ومصادمة بعض مقاصد الشريعة كالترغيب في العزوبة، والترهيب من النكاح، بجانب انحراف الصوفية في تصوراتهم عن النبوة والولاية والإلهيات، واختصاص الخواص بأسرار دينية لا يطلع عليها غيرهم، وتقديم المكاشفات والإلهامات والمنامات المزعومة على الأدلة المعصومة، وشيوع استدلالهم بالأحاديث والآثار الواهية والموضوعة.. إلى آخر مظاهر انحرافهم عن الجادة فضلاً عن بدعهم الشنيعة التي أفاض في ذكرها الإمام ابن الجوزي في «تلبيس إبليس»، وغيره من الأئمة الأعلام، بحيث يمكننا أن نخلص إلى القول بأن الصوفية فئة غارقة في البدع بأنواعها: علمية وعملية، حقيقية وإضافية، وعبادية وعادية، فعليه وتركية، كلية وجزئية، وأن الصوفية غير مؤهلة لحمل أمانة هذا الدين إلى العالمين لأنها لا تؤتمن عليه، وقد انحرقت عن حقائقه هذا الانحراف الخطير.

أما كتاب «الإحياء» فهناك ظاهرة تتعلق به تستلفت النظر:

فهو قد استحوذ من اهتمام العلماء على قدر عظيم، ما بين شارح له كالزبيدي في «إتحاف السادة المتقين»، وكالحافظ العراقي في تخريجه «المغني عن حمل الأسفار لتخريج ما في الإحياء من الآثار»، وللغزالي نفسه «كتاب الإملاء في إشكالات الإحياء»، ولأخيه أحمد بن الغزالي «مختصر إحياء علوم الدين» وهو أول مختصر له، وللشيخ عبدالقادر العيروس كتاب «تعريف الأحياء بفضائل الإحياء»، ومن الناس من غض الطرف تماماً عن المآخذ التي تضمنها، وغلا فيه حتى قال: (كاد الإحياء أن يكون قرآناً)، وقال ثان: (لو بعث الله الموتى لما أوصوا الأحياء إلا بالإحياء)، وقال ثالث: (من لا يطالع الإحياء، ما فيه حياة)، وقال رابع: (الحجة فيما اختاره الحجة)، وقال خامس: (دع اللحية، واقتن الإحياء).

وفي الجانب الآخر أفتى بتحريق نسخ الإحياء علماء المغرب ممن عرف بالسنة وتم ذلك بالفعل، وسماها كثير منهم «إمارة علوم الدين»، وقام ابن عقيل أعظم قيام في الذم والتشنيع، وقال فيه قولاً شديداً، وصنف بعض العلماء في الرد على ما تضمنه، «الإحياء» من مجازفات كما فعل ابن الجوزي في «إعلام الأحياء بأغلاط

الإحياء»، والإمام أبو الحسن بن سكر في «إحياء ميت الأحياء في الرد على كتاب الإحياء»، والإمام المازري في كتابه «الكشف والإنباء عن كتاب الإحياء»، ومن العلماء من زجر عن مطالعته إلا بشروط كما حكاه المؤلف عن المازري: (.. ومن لم يكن عنده من البسطة في العلم ما يعتصم به من غوائل هذا الكتاب، فإن قراءته لا تجوز، وإن كان فيه ما ينتفع به)^(١٨)، ومنهم من أرشد في رفق إلى التحذير من مطالعته كما فعل الحافظ الذهبي^(١٩) رحمه الله، ومنهم من زجر عن ذلك مطلقاً، كما قال الشيخ عبداللطيف الحنبلي في رسالة كتبها إلى بعض أصحابه:

(بسم الله الرحمن الرحيم من عبداللطيف بن عبدالرحمن إلى الأخ في الله عبدالله بن معين سلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وبعد فقد بلغني عنك ما يشغل كل من له حمية إسلامية، وغير دينية على الملة الحنيفية، وذلك أنك اشتغلت بالقراءة في كتاب الإحياء للغزالي، وجمعت عليه من لديك من الضعفاء والعامه الذين لا تميز لهم بين مسائل الهداية والسعادة، ووسائل الكفر والشقاوة، وأسماهم ما في الإحياء من التحريفات الجائرة، والتأويلات الضالة الخاسرة، والشقاشق التي اشتملت على الداء الدفين، والفلسفة في أصل الدين، وقد أمر الله تعالى وأوجب على عباده أن يتبعوا رسله، وأن يلتزموا سبيل المؤمنين، وهذا الأصل المحكم لا قوام للإسلام إلا به، وقد سلك في الإحياء طريق الفلاسفة والمتكلمين في كثير من مباحث الإلهيات وأصول الدين، وكسا الفلسفة لحاء الشريعة، حتى ظنها الأغمار والجهال بالحقائق من دين الله الذي جاءت به الرسل، ونزلت به الكتب، ودخل به الناس في الإسلام، وهي في الحقيقة محض فلسفة منتنة يعرفها أولو الأبصار، ويمجها من سلك سبيل أهل العلم كافة في القرى والأمصار، قد حذر أهل العلم والبصيرة عن النظر فيها، ومطالعة خافيتها وباطنها، ..) إلى أن قال: (إذا سمعت بعض عباراته المزخرفة قلت: كيف ينهانا عن هذا فلان؟ أو يأمر بالإعراض عن هذا الشأن؟ كأنك سقطت على الدرة المفقودة، والضالة المنشودة، وقد يكون ما أطربك وهراً أعطافك وحركك فلسفة منتنة، وزندقة مبهمه، أخرجت في قالب الأحاديث النبوية، والعبارات السلفية)^(٢٠) أ هـ .

وهناك فريق من العلماء نظر إلى الفوائد الجليلة المبتوثة في الإحياء والمقتبسة من نور القرآن ومشكاة السنة فأروه مدرسة تربوية فريدة في جنسها، ونفيسة في

(١٨) انظر ص (٣١٦) ط. أولى .

(١٩) انظر «سير أعلام النبلاء»، (٣٣٩/١٩-٣٤٠).

(٢٠) «غاية الأمان في الرد على النبهاني»، ص (٣٦٩، ٣٧٠).

نفسها، وفي ذات الوقت أدركوا خطر المجازفات التي تضمنها والتي تنحرف بمعتقداتها وسالكها عن سبيل أهل السنة والجماعة، فذندنا حول الإحياء يحاولون تهذيبه وإخراجه خالصاً سائغاً من بين فرث الفلسفة ودم الكلام المذموم، ومن هؤلاء الإمام أبو الفرج بن الجوزي الذي ألف كتاباً في هذا سماه «منهاج القاصدين ومفيد الصادقين»، وقال في مقدمته: (اعلم أن في كتاب «الإحياء» آفات لا يعلمها إلا العلماء، وأقلها الأحاديث الباطلة الموضوعية والموقوفة، وقد جعلها مرفوعة، وإنما نقلها كما اقتراها، لا أنه افتراها، ولا ينبغي التعبد بحديث موضوع، والاغترار بلفظ مصنوع).

وكيف ارتضى لك أن تصلي صلوات الأيام ولياليها، وليس فيها كلمة قالها رسول الله ﷺ؟

وكيف أوتر أن يطرق سمعك من كلام المتصوفة الذي جمعه وندب إلى العمل به ما لا حاصل له من الكلام في الفناء، والبقاء، والأمر بشدة الجوع، والخروج إلى السياحة في غير حاجة، والدخول في الفلاة بغير زاد، إلى غير ذلك مما قد كشفت عن عواره في كتابي المسمى بـ «تلبس إبليس»، وسأكتب لك كتاباً يخلو عن مفاسده، ولا يخل بفوائده...^(٢١) إلخ كلامه. ثم قام الإمام نجم الدين أبو العباس أحمد بن محمد بن عبدالرحمن بن قدامة المقدسي باختصار كتاب ابن الجوزي وسماه: (مختصر منهاج القاصدين)، ومن اختصر «الإحياء» العجلوني، ومحمد ابن سعيد اليميني، وأحمد بن موسى الموصلي، والسيوطي، والقاسمي في «موعظة المؤمنين»، ثم حققه طائفة وأسماه: «تهذيب موعظة المؤمنين»، وللشيخ محمود عوض رحمه الله مختصر له أسماه: «طب القلوب»، وللشيخ أبي الحسن الندوي مختصر له أيضاً اسمه «تهذيب الأخلاق».

ونحن اليوم على أعتاب نهضة قرآنية، وصحوة سنية، وبقظة سلفية نتلمس الطريق الذي نرتقي بسلوكه إلى مستوى الجيل الأول، بعيداً عن مخلفات الغزو الفكري الحديث المتمثل في العلمانية والتنصير والاستشراق.. إلخ، أو القديم المتمثل في الباطنية والفلسفة والكلام والصوفية.. إلخ، فما أشد حاجتنا إلى الدراسة المبصرة الواعية لفكر أبي حامد الغزالي رحمه الله باعتباره رمزاً من رموز المنهج الصوفي دخل في غمار الفلاسفة والمتكلمين والباطنية، فحمل عليهم وانغمس في صفوفهم،

(٢١) مقدمة «مختصر منهاج القاصدين»، ص (٣).

وما زال يجاهدكم حتى قل شوكتهم وكسرهم، وفرق جموعهم شذر منذر، وفلق هام كثير منهم، غير أنه أصابه في أثناء ذلك شيء من دمائهم، فراح يحاول أن يغسل أثر الدم عنه.

فهذا حال أبي حامد الغزالي رحمه الله تعالى، وواجبنا أن نتأمل في تجربته، وأن نستنبط منها العبر، وهذا ما حاوله أخونا في الله / عبدالرحمن دمشقية الذي أجاد وأفاد، وإن كان فَرَطَ منه مواضع قليلة كان الأولى رفعها من الكتاب، لأن فيها تحولاً عما لزمه العلماء من توفير الإمام، واحترامه، والتؤدة في نقد كتبه، واجتهادهم - رحمهم الله - ما وسعهم في تأويل عباراته، وتحسين الظن به، مع بيان الحق من الباطل، والصدع بالإنكار عليه فيما خالف الكتاب والسنة، ومع ذلك نرجو أن تكون هذه المواضيع مغمورة في حسنات هذا البحث وما أكثرها، و «إذا بلغ الماء قلتين لم يحمل الخبث»، فجزاه الله خير الجزاء وأفضله. وأخيراً:

فإن أعظم عبرة نستقيها من تجربة الإمام أبي حامد رحمه الله هي عودته بعد طول غربة إلى منهج السلف الصالح، نادماً على بضاعة العمر النفيسة التي أنفقها في التحري والبحث والتنقل، فحرى بنا أن نحرص جميعاً على نقطة البداية ونحن نتلقى المفاهيم والعلوم فنبدأ من حيث انتهى الغزالي رحمه الله، وأن ندقق في الطريق الذي سنسلكه قبل أن تطأه أقدامنا، وننقق فيه بضاعة عمرنا، فإذا بنا أمام سدٍّ منيع يحول بيننا وبين طريق النجاة، فنعض أناملنا، ويغشانا الندم، ولات حين مندم، وقد قيل: «فساد الانتهاء من فساد الابتداء».

ومن هنا عدُّ السلف من علامات السعادة للشباب إذا نسك أن يواخي صاحب سنة يحمله عليها، وأن يقيض الله له رجلاً من أهل السنة والجماعة يضع قدميه منذ البداية على طريق الفرقة الناجية، والطائفة الظاهرة المنصورة.

فيامن امتن الله عليكم بالعافية، وقرب إليكم منابع العلم النافع، علم الكتاب والسنة صافية زلالاً، وقبض لكم علماء أهل السنة في مشارق الأرض ومغاربها، أشكروا الله نعمته، واحفظوها ولا تضيعوها، ولا تبدلوا نعمة الله كفراً، ولا تستبدلوا الذي هو أدنى بالذي هو خير.

﴿ قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين * يهدي به الله من اتبع رضوانه

سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم ﴿ [المائدة ١٥-١٦] .

والحمد لله رب العالمين .

كتبه

محمد بن أحمد بن إسماعيل

١٥ رمضان ١٤٠٨ هـ
الإسكندرية في الأحد:
أول مايو ١٩٨٨ م